نشأة الأناجيل

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

مخطوطة لفاتحة سفر الرؤيا
محفوظة في الڤاتيكان

الإنجيل كلمة يونانية تعني البشرى السارة. عند اليونان كان مصدر الكلمة يدلّ على بشرى الانتصار التي يحملها المبشّر من أرض المعركة الى الشعب المنتظر في المدينة. في العهد القديم لدينا نصوص ذات أهميّة لفهم معنى الكلمة، نذكر منها أشعيا (٦١ : ١):

«روحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَليَّ لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَني وأَرسَلَني لأُبشِّرَ الفُقَراء وأَجبُرَ مُنكَسِري القُلوب وأُنادِيَ بإِفْراجٍ عنَ المَسبِيِّين وبتَخلِيَةٍ لِلمَأسورين». (راجع أيضاً أش ٤٠ : ٩).

نرى في هذه النصوص من أشعيا أنّ المبشّر فرد يبشّر شعب الله بالحريّة من الأسر وبالعودة إلى الأرض المقدّسة، مع بداية عهد جديد، يحلّ فيه السلام والخلاص لكلّ الأمم:

«ما أَجمَلَ على الجِبالِ قَدَمَي المُبَشِّرِ المُخبِرِ بالسَّلامِ المُبَشِّرِ بالخَيرِ المُخبِرِ بالخَلاصِ القائِلِ لِصِهْيونَ: قد مَلَكَ إِلهُكِ» (أش ٥٢ : ٧).

تحقّقت النبؤات بمجيء يسوع الذي بدأ رسالته مبشّرا بالإنجيل:

«وبَعدَ اعتِقالِ يوحَنَّا، جاءَ يسوعُ إِلى الجَليلِ يُعلِنُ بِشارَةَ الله، فيَقول: تَمَّ الزَّمانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكوتُ الله. فتوبوا وآمنوا بالبشارة» (مرقس ١ : ١٤-١٥).

كما ينقل لوقا تأويناً واضحاً لنبؤات أشعيا عن البشرى السّارة:

«وعادَ يسوعُ إِلى الجَليلِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ، فانتَشَرَ خَبَرُه في النَّاحِيَةِ كُلِّها. وكانَ يُعَلِّمُ في مَجامِعِهم فيُمَجِّدونَه جَميعاً. وأَتى النَّاصِرَةَ حَيثُ نَشَأَ، ودخَلَ المَجْمَعَ يَومَ السَّبتِ على عادَتِه، وقامَ لِيَقرأ. فدُفِعَ إِلَيه سِفْرُ النَّبِيِّ أَشَعْيا، فَفَتَحَ السِّفْرَ فوَجَدَ المَكانَ المكتوبَ فيه: رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَني لأُبَشِّرَ الفُقَراء وأَرسَلَني لأُعلِنَ لِلمَأسورينَ تَخلِيَةَ سَبيلِهم وللعُميانِ عَودَةَ البَصَرِ إِلَيهِم وأُفَرِّجَ عن

المَظلومين وأُعلنَ سَنَةَ رِضاً عندَ الرَّبّ.ثُمَ طَوَى السِّفرَ فَأَعادَه إلى الخادم وجَلَسَ. وكانَت عُيونُ أَهلِ المَجمَعِ كُلِّهِم شاخِصَةً إِلَيه.فَأَخَذَ يَقولُ لَهم: اليوم تَمَّت هذه الآيةُ بِمَسمَعٍ مِنكُم». (لوقا ٤: ١٤-٢٠).

الإنجيل هو قبل كلّ شيء "البشرى السّارة" التي أعلنها يسوع من خلال تعليمه وأعماله. يرتبط الإنجيل إذا بشخص يسوع وبمجمل رسالته، قبل أن يصبح أسفاراً مكتوبة بوحي من الروح القدس. لذلك يؤكّد أهل الإختصاص أنّ نشأة الأناجيل مرّت بثلاث مراحل.

١ - المرحلة الأولى: حياة يسوع وتعليمه

«إن الكنيسة تؤكّد بإصرار أن الأناجيل الأربعة تُثبت تاريخيتها في غير تردّد، تنقل بأمانة ما عمله يسوع ابن الله، وما علّمه، سحابة حياته بين البشر، في سبيل خلاصهم الأبديّ، الى اليوم الذي رُفع فيه الى السماء» (تعليم الكنيسة ١٢٦).

لدينا أناجيل لأنّ يسوع عاش في أرض معيّنة هي فلسطين وفي زمن معيّن هو بداية الزمن الميلادي. لا أحد يستطيع اليوم أن يُنكر وجود يسوع التاريخي. لذلك يمكن للمؤرّخ أن يرسم مسيرة حياته كالتالي: وُلد يسوع عندما كان هيرودس ملكاً، ست سنوات قبل الميلاد (والتفاوت ناجم عن خطأ في التقويم). عاش في الناصرة حياة يهوديّ تقيّ، إلى أن بدأ رسالته العلنية. كان ذلك بُعيد سنة ٢٨ للميلاد. اختار يسوع تلاميذه فكانوا معه عندما بشّر بالقول والفعل أن صار قريباً ملكوت الله. بعد مضي ثلاث سنوات من الرسالة العلنية، حكم عليه الرؤساء الدينيون للشعب، فصلبه الرومان. بعد موته أكّد تلاميذه أنّهم وجدوا القبر فارغاً وأنّهم التقوا به حيّا. فبدأوا التبشير بالقيامة، وصار الإنجيل البشرى السّارة التي بشّر بها التلاميذ.

الإنجيل هو بشارة يسوع

الإنجيل هو بشارة الرسل بيسوع المسيح القائم من الموت.

الإنجيل هو يسوع، كما يقول مرقس في بداية إنجيله: «بدء بشارة يسوع المسيح ابن الله» (مرقس ١: ١).

٢ -المرحلة الثانية: التقليد المتناقل شفويّا

«ما قاله الرّبّ وما عمله، نقله الرّسل، بعد صعوده الى مستمعيهم، مع ما نعموا به من فهم أعمق للأمور اكتسبوه من أحداث المسيح المجيدة وعلى ضوء روح الحقّ» (تعليم الكنيسة).

كانت الكنيسة الأولى تبشّر وتعلّم وتصلّي وتحتفل بالمسيح. خلال العقدين الأوّلين بعد

قيامة المسيح لم يكن لدى الكنيسة كتابات مقدّسة غير أسفار العهد القديم، فكان الإنجيل يتكوّن بالنقل الشفهي في حياة الكنيسة.

منظر جانبي لبازيليك البشارة في الناصرة

البشرى الأولى

يروي أعمال الرسل كيف انتشر الإنجيل في المسكونة على يد الرسل. كانوا يبشّرون اليهود ثم الوثنيين بالمسيح الذي قام من بين الأموات. هناك نصوص عديدة في العهد الجديد تعبّر عن هذه البشارة الأساسية والأولى. يدعو أهل الإختصاص هذا النوع من التبشير "كريجما". كلمة يونانية تعني صراخ المنادي، للتعبير عن الكرازة الأولى الموجّهة إلى اليهود وإلى الوثنيين. نذكر على سبيل المثال عظة بطرس الأولى يوم العنصرة حيث بشّر قائلاً:

«إنّ يسوع الناصريّ، ذاك الرجل الذي أيّده الله لديكم بما أجرى عن يده بينكم من المعجزات والأعاجيب والآيات، كما أنتم تعلمون، ذاك الرجل الذي أُسلم بقضاء الله وعلمه السّابق فقتلتموه وعلّقتموه على خشبة بأيدي الكافرين، قد أقامه الله وأنقذه من أهوال الموت» (أعمال ٢ : ٢٢-٢٣).

عظة بطرس الأولى (أعمال ٢ : ١٤-٣٦) هي مثال عن كيفية تبشير اليهود، إذ كان الرسل ينطلقون من تاريخ الخلاص ليثبتوا أنّ يسوع هو المسيح وآلامه وقيامته هي تحقيق للنبؤات. هذه البشرى السّارة هي دعوة للإيمان والتوبة لنيل الخلاص بيسوع المسيح الذي جعله الله ربّا ومسيحاً (أعمال ٢ : ٣٦-٤١).

قيامة يسوع من بين الأموات هي أيضاً موضوع البشارة للوثنيين، رغم اختلاف الأسلوب، لأنّ الكرازة موجّهة إلى ناس لا يعرفون الكتب المقدّسة. فكان الرسل ينطلقون مما كان باستطاعة الوثنيين فهمه، ألا وهو الله الخالق ليصلوا إلى البشرى الأساسية أي قيامة يسوع من الموت. نذكر

هنا بولس، رسول الأمم الذي حفظ لنا في رسائله أمثلة عن هذا الحوار بين الأديان، إذا صحّ التعبير. يصف بولس في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيقي، أول أسفار العهد الجديد، اهتداء هؤلاء المسيحيين من أصل وثني بهذه الكلمات: «فهم يخبرون (المؤمنون في مقدونية وآخائية) أيّ استقبال لقينا عندكم وكيف اهتديتم إلى الله وتركتم الأوثان لتعملوا لله الحقّ الحيّ وتنتظروا أن يأتي من السّموات ابنه الذي أقامه من بين الأموات، ألا وهو يسوع المسيح الّذي ينجّينا من الغضب الآتي» (تس ١ : ٩-١٠). يدعو المفسّرون الجزء الأخير من هذا النصّ "كريجما" أي التبشير الأول الموجّه هنا إلى الوثنيين. يحفظ أعمال الرسل أمثلة من هذا النوع: عظة بولس في لسترة (١٤ : ١٥-١٧) وبنوع خاص خطبته في أثينا، مدينة الفكر والفلسفة (٢٢ : ١٧-٣٤).

الصلاة والعبادة

كانت الكنيسة تحتفل بالمسيح القائم من بين الأموات، خاصة في الإفخارستيا. في هذه الإجتماعات الليترجية تمّت صياغة كثير من الذكريات عن يسوع. فكان الرسل يخبرون عن حياتهم مع المعلّم الإلهيّ، بما في ذلك رواية العشاء الأخير للرب، وكيف أعطى يسوع ذاته من خلال الخبز والخمر قائلاً: «خذوا هذا هو جسدي ... ، هذا هو دمي، دم العهد الجديد» (مرقس ١٤ : ٢٢-٢٤). يمكن أن نتصوّر بطرس يخبر الجماعة المسيحية الأولى كيف خان المعلّم ويوحنا عما عاشه عند الصليب إلى جانب مريم أم يسوع. فتكوّنت بذلك أول رواية عن آلام المسيح. هذه هي النواة الأولى للإنجيل.

التعليم

لم تكن البشرى الأولى كافية لاتّباع المسيح وفهم الإيمان. كان على المؤمنين أن يصبحوا مسيحيين ناضجين من خلال المثابرة على تعليم الرسل:

«وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والمشاركة وكسر الخبز والصّلوات» (أعمال ٢ : ٤٢).

صورة لآثار مجمع كفرناحوم حيث تردَّد يسوع وعلَّم

تبيّن هذه الآية أهميّة تعليم الرسل الذي كان يلقي الضوء على حياة التلاميذ. كان لا بدّ من الرجوع إلى أقوال يسوع وأعماله للإجابة على التساؤلات الكثيرة التي تطرحها الحياة اليومية في الأخلاق ومواجهة الاضطهاد. ساهم هذا التعليم بتكوين التقليد الشفهي عن أقوال يسوع وأعماله خلال رسالته العلنية.

٣ -المرحلة الثالثة : الأناجيل المدوّنة

«دوّن الكتّاب الإلهيون الأناجيل الأربعة مختارين بعضاً من العناصر الكثيرة التي بلغتهم عن طريق الرواية، أو عن طريق كتابة سابقة، أو مدوّنين خلاصةً لما تبقّى منها، أو مفسّرين لها تبعاً لأحوال الكنائس، وناهجين أخيراً النهج الإرشاديّ، بحيث يقدّمون لنا أبداً عن يسوع أموراً حقيقيّة وصادقة» (تعليم الكنيسة).

صورة القديس مرقس الإنجيلي للفنان "بينوتسو غوتسولي
جدارية كنيسة القديس أغسطينوس ، سان جيمينيانو ، إيطاليا

الإنجيل حسب مرقس

هو أول الأناجيل من الناحية التاريخية. الكاتب الملهم هو مرقس الذي رافق بولس في رحلته الرسولية الأولى وكان إلى جانب بطرس وبولس في روما حوالي سنة ٦٠. تبعاً للتقليد، يرتبط إنجيل مرقس ببطرس الرسول وكرازته. كُتب في روما بين سنة ٦٥ و٧٠، لجماعة مسيحية من أصل وثنيّ، ترزح تحت وطأة الإضطهاد. تُظهر الآية الأولى من الإنجيل سرّ يسوع المسيح، ابن الله. في هذا الإنجيل، يشير يسوع عن ذاته بلقب ابن الإنسان، الذي يعبّر عن سرّ يسوع الإله الحق والإنسان الحق.

الإنجيل حسب متى

متى الإنجيليّ والرسول هو جابي الضرائب الذي دعاه يسوع بينما كان يمارس مهنته (متى ٩ : ٩). كتب إنجيله حوالي سنة ٨٠ م. من أجل جماعة مسيحية من أصول يهودية، في سوريا أو في فلسطين. يستعمل متى العهد القديم بشكل مكثّف ليدلّ عن معرفة المرسل إليهم بالكتاب المقدّس.

يحاول من خلال هذا الأسلوب الكتابيّ التأكيد على أنّ يسوع هو المسيح المنتظر، ابن داود.

الإنجيل حسب لوقا

يرجع إلى الثمانينات من القرن الأول. لوقا، كاتب الإنجيل الثالث وأعمال الرسل، هو رفيق بولس في الرسالة، والأرجح على أنّه من مدينة أنطاكية. يوجّه لوقا إنجيله الى جماعة تعيش في وسط يونانيّ، في آسيا الصغرى أو في اليونان. يشدّد لوقا على حقيقة القيامة التي كان من الصعب فهمها في ثقافة يونانيّة تميّز بين الجسد الفاني والروح الخالدة. لوقا هو إنجيل الانفتاح على الوثنيين، فيتميّز بوصف الخلاص الشامل الذي يحلّ اليوم بيسوع المسيح.

صورة من مخطوطة "كيلس" البريطانية (٨٠٠ م.)
تحوي الأناجيل الأربعة مصورة

الإنجيل حسب يوحنا

يوحنا، واضع الإنجيل الرابع في أواخر القرن الأول الميلاديّ، هو حسب التقليد، الرسول والتلميذ الحبيب الذي يذكره الإنجيل. ولكن ينوّه علماء الكتاب المقدّس عن إمكانية أن تكون المؤلّفات اليوحنّاوية، أي الإنجيل الرابع ورسائل يوحنا الثلاث وسفر الرؤيا، من إبداع مدرسة تابعة للرسول الكبير يوحنا. ذلك أنّ فكرة المؤلّف عند الأقدمين غير ما هي عليه في ثقافتنا المعاصرة.

يبدو أنّ إنجيل يوحنا قد أُرسل إلى الكنائس المسيحية في آسيا الصغرى، حيث بدأت تظهر بشكل جديّ هرطقات تهدّد إيمان المسيحيين، لذلك يبيّن الإنجيل أهميّة الثبات بالتقليد الرسوليّ الذي يمثّله خير تمثيل يوحنا الرسول.

معرفة المرسل إليهم، أي الجماعة المسيحية التي وُضِع الإنجيل فيها ومن أجلها، هو أمر جدير بالدراسة. ذلك أنّ الأناجيل تعكس إيمان ومصاعب هذه الجماعة المسيحية، فينتج عن ذلك مؤلّف موحى من الله بحلّة خاصة لترسم وجه المسيح بطريقة فريدة. الوجه واحد والرسّامون أربعة، يُبدع كلّ منهم، بوحي من الروح القدس، ليعطي للكنيسة وللبشرية صورة مختلفة تتكامل مع الأخرى لتؤلّف كتاباً واحداً هو العهد الجديد.

الأناجيل الأربعة إنجيل الرّبّ الواحد

لم تكن المؤلّفات المسيحية القانونية سوى جزء صغير من الكتابات المسيحية القديمة، إلى جانب كثير من الكتابات المنحولة. تتميّز الأناجيل القانونية قبل كلّ شيء بأنّها الأقدم، ترجع كلّها إلى القرن الأول الميلاديّ. ابتداء من أواسط القرن الثاني الميلاديّ لدينا شهادات صريحة على قانونية الأناجيل الأربعة. ينوّه كتاب "تعليم الرسل" الذي يرجع إلى الحقبة الرسوليّة عن "إنجيل الرب". أما الشهادة الواضحة فترجع إلى القدّيس يوستينوس النابلسيّ الذي يذكر "ذكرى الرسل" ويدعوها "الأناجيل". كما يقول أوريجنوس، العلامة الإسكندرانيّ: «ما كتبه أربعة هو الإنجيل الواحد». والقدّيس إيرينيوس يقول عن الرسل الذين بشّروا وكتبوا: «كان لديهم جميعاً إنجيل الله الواحد». ويشتهر إيرينيوس بعبارة «الإنجيل الرباعيّ الشكل». ويزيد القدّيس أغسطينوس قائلاً: «أسفار أربعة للإنجيل الواحد».

وفي الخاتمة

نلقي الضوء على أهميّة الإنجيل الرباعيّ النصّ في حياة الكنيسة (راجع تعليم الكنيسة ١٢٤-١٢٧). فنذكر ما توليه الليتورجيا من توقير للإنجيل. عندما يُتلى الإنجيل تقف الجماعة إكراماً وفي الاحتفالات يقوم المحتفل بتبخير كتاب الإنجيل وبعد القراءة يقبّله الكاهن أو الشمّاس. إلى ما هنالك من علامات تعبّر عن الإيمان وعن المكانة الفريدة التي يحتلّها الإنجيل في الكنيسة:

«إنّ كلمة الله، التي هي قدرة إلهيّة لخلاص كل مؤمن، تمثل في أسفار العهد الجديد، وقوّتها تتجلّى فيها عى وجه فريد. إن هذه الأسفار تجعل في أيدينا حقيقة الوحي النهائية. أمّا موضوعها المركزيّ فيسوع المسيح، ابن الله المتجسّد، وأعماله، وتعاليمه، وآلامه، وتمجيده، فضلاً عن نشأة الكنيسة بفعل الروح القدس. فالأناجيل قلب الأسفار المقدّسة كلّها من حيث أنها الشهادة المُثلى على حياة الكلمة المتجسّد وتعليمه» (تعليم الكنيسة ١٢٤-١٢٥).

وفي هذا المجال نذكر التأثير العجيب للإنجيل في نفوس القدّيسين على مرّ العصور. قراءة الإنجيل هو لقاء بالمسيح وإصغاء لكلمته وشفاء للنفس. تقول القدّيسة سيزاري الصغرى:

«ما من عقيدة أجود وأثمن وأروع من نصّ الإنجيل. تأمّل واحفظ ما علّمه المسيح سيّدنا ومعلّمنا بأقواله وما حقّقه بأعماله».

والقدّيسة تريزيا الطفل يسوع تقول:

«الإنجيل هو الذي فوق كلّ شيء يحدّثني في تأمّلاتي؛ فيه أجد كلّ ما في نفسي البائسة بحاجة إليه. إني أكتشف فيه دائماً أضواءً جديدة، معانيَ خفيّة وعجيبة».